الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

بعد رحيل عبد الناصر:

هل أصبحت وحدة القومية العربية في خبر كان؟

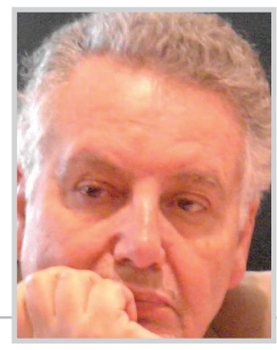

بعض المفكرين العرب المعاصرين النجباء والمُلهمين، لهم من النظرات النافذة والتفكير العقلاني ما يصل إلى الحد الأعلى في النظر والتأمل واستخلاص النتائج . فقبل رحيل عبد الناصر ١٩٧١ وقبل أفول شمس دعوة القومية العربية من بعد رحيل الزعيم قال المفكر اللبناني ملحم قربان في ١٩٦٧، في كتابه "إشكالات" : "إن هناك بيّنات كثيرة في هذا العصر الذي نعيش فيه تشير إلى أن نجم القومية آخذ بالأفول. أصبحت القومية – أو كادت- من تحف الماضي في كثير من البلدان. هذا أمر يزداد وضوحاً مع الأيام.

شاكر النابلسي

جمال عبد الناصر

جمال الدين الأفغاني

ساطع الحصري

نقطة التحول الكبيرة

يبدو أن القرن التاسع عشر كان نقطة تحول كبيرة في تاريخ الفكر القومي، وفي نشوء فكرة القومية العربية. فالهزّات الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية والتحولات السياسية، التي حدثت في نهاية هذا القرن وبداية القرن العشرين هي التي أظهرت العروبة والقومية العربية على هذا النحو من النمو والازدهار في العقد الثالث والرابع من القرن العشرين. وكان من أبرز هذه التغيرات نمو الرأسمالية العربية بسرعة غير معهودة. وكان من أبرز هذه التحولات معاهدة سايكس – بيكو، وما نتج عنها من إقامة كيانات إقليمية سياسية جديدة.

فئات المفكرين القوميين

ومن خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، نستطيع أن نُقسِّم مبدئياً فئة المفكرين القوميين إلى ثلاث فئات :

الفئة الأولى، وهي الفئة التي يُطلق عليها فئة المفكرين الذين عُنيوا بالفكر القومي عناية نعتية وصفية تصويرية، وأطلق عليهم "الوصفيون Descriptivists " فنجح معظم هؤلاء المفكرين في أن يقدموا لنا قوائم وحقائق بُنيت عليها فكرة القومية العربية. وكان على رأس هؤلاء: إبراهيم جمعة، جورج أنطونيوس، ساطع الحصري، جورج حنا، أحمد سعيد، حازم نسيبه، منيف الرزاز، نبيه فارس، وأحمد حسين، وغيرهم كثيرون ممن ساهموا في جدولة وتصوير ووصف أسس القومية العربية، ومرتكزاتها.

والفئة الثانية، ويُطلق عليها فئة المفكرين "المعياريين أو النموذجيين Normativists" وهم الذين يقولون بأن القومية العربية ما زالت قادرة وبشكل تلقائي على إضفاء روح العروبة نموذجياً ومعيارياً. ومن هؤلاء المفكرين: قسطنطين زريق، وإسحاق موسى الحسيني، الذي سعى إلى منهاجية فكره بقوله من أن العروبة ذات عناصر رئيسية ثلاثة مرتبطة ببعضها أشد الارتباط وهي: اللغة، والقلب، والعقل.

والفئة الثالثة، وهم المفكرون القوميون "الواقعيون Factitivists" الذين يقفون على خلاف ونقيض وفي الجانب الآخر من الفئتين السابقتين. فالفئتان السابقتان تريان أن العروبة في حياة العرب وفي ميراثهم وفي روحهم. كما تريان أن العروبة هي الشخصية الحقيقية للأمة العربية والمجتمع العربي. في حين أن فئة القوميين الواقعيين وعلى رأسهم فايز صايغ لا ترى أن العروبة حتمية أو في الميراث. وأن العروبة ليست أصلية بقدر ما هي واقعية. ومن هنا فإن هذه الفئة تعتبر العروبة رسالة ليست لكافة عرب اليوم ولكنها رسالة عرب شبه الجزيرة العربية الذين عاشوا فيها منذ القرن السابع، وتطبعوا بها.

الأفغاني: من "الجامعة الإسلامية" إلى "الرابطة القومية".. لماذا ؟

من الثابت أن جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) كان من أوائل الذين عرَّفوا بالقومية العربية ونظّروا لها في رده على المستشرق الفرنسي ارنست رينان Renan (١٨٢٣-١٨٩٢) بعد أن خابت آماله في تحقيق "الجامعة الإسلامية" التي كان يدعو إليها، مُؤمِّلاً في العثمانيين كأداة سياسية لتحقيق دعوته، كما أمَّل الشيخ محمد عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٨٩) في السعوديين لتبني دعوته السلفية الوهابية.

خلاف آل عثمان مع الأفغاني

ولم يك العثمانيون آنذاك أذكياء سياسياً كما كان آل سعود وآل ثاني في قطر الذين استطاعوا أن ينفذوا بالوهابية إلى السياسة وإلى بناء حكم وطيد، وهو ما لم يستطع آل عثمان القيام به مع جمال الدين الأفغاني للأسباب التالية:

١. قصور سلاطين آل عثمان السياسي، وقصر نظرهم، وعدم فهمهم لدور الدين الإسلامي في تثبيت حكم بني أمية وبني العباس والفاطميين من بعدهم.

٢. بدء تسرُّب الفكر العَلْماني إلى الفكر التركي السياسي، وإحلاله محل الفكر الثيوقراطي. وما أن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى كان الفكر العَلْماني التركي متغلغلاً في الفكر السياسي التركي الذي أخذ يبتعد قليلاً قليلاً عن الثيوقراطية، مما مهد لثورة كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨) العَلْمانية، وبالتالي إلغاء الخلافة العثمانية في عام ١٩٢٤ ، وقيام الجمهورية التركية في عام ١٩٢٣.

و كان المفكرون السياسيون من الأتراك ومن "جمعية الاتحاد والترقي" وهم أرقى المفكرين السياسيين في تركيا الذين يمكن أن يسمعوا لدعوة كدعوة الأفغاني من "البنائين الأحرار Freemasons" وكان التعصب الديني يتعارض مع مبادئ البنائين الأحرار. وهو ما قاله زين نور الدين، في كتابه (نشوء القومية العربية، ص٨٦). ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب صدر للمرة الأولى بالانجليزية في عام ١٩٥٨، أي في المرحلة الناصرية القومية، ومن هنا نرى أن معظم الآراء التي جاء بها حول مفهوم القومية العربية مرهونة بتلك الفترة.

٣. كان يهود سالونيكا جزءاً لا يتجزأ من "جمعية الاتحاد والترقي" مما دعا المؤرخ الإنجليزي سيتون واتسون Watson إلى القول "إن الحقيقة البارزة قي تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية" مشيراً إلى أن أبرز زعماء هذه الجمعية من أصل غير تركي ومنهم: فانور باشا البولندي، وجاويد الذي ينحدر من طائفة أرستقراطية يهودية، وكراسو اليهودي القادم من إسبانيا، وطلعت باشا البلغاري، وأحمد رضا المجري الشركسي.

٤. كان تمويل "جمعية الاتحاد والترقي" تمويلاً يهودياً يأتي من الطائفة الأرستقراطية اليهودية المعروفة بـ "الدونمه Dunmeh" ومن يهود مدينة سالونيكا الأثرياء. كما كانت المعونات تأتيهم من الرأسمالية الدولية في فيينا وبودابست وبرلين.

٥. عدم وجود تنظيمات سياسية إسلامية قوية متفتحة على غرار "تركيا الفتاة" و "جمعية الاتحاد والترقي" تستطيع أن تستوعب فكرة "الجامعة الإسلامية" وتتبناها وتكافح من أجلها بغض النظر عن قبولها تركياً أو عدم قبولها. فقد كانت المؤسسات الدينية في العهد العثماني بعيدة عن الإسلام السياسي المتفتح، وكانت غارقة في امتيازاتها المالية والاجتماعية وتحافظ على هذه الامتيازات بالابتعاد عن كل ما يُكدِّر صفو السلطة العثمانية أو السلطات الإقليمية في الولايات.

وكانت هذه الأسباب مجتمعة سبباً في ترك الأفغاني لدعوة "الجامعة الإسلامية" والالتفات إلى دعوة " الجامعة العربية" والقومية العربية وتوجيه دعوته إلى العروبيين علهم يحققون الوحدة والجامعة التي كان يطمح إليها الأفغاني والتي فشل العثمانيون في تحقيقها عن طريق "الجامعة الإسلامية"، وخيبوا آمال الأفغاني.

ولكن الجدير بالذكر واللافت للنظر والمثير حقاً، أن الدعوة "القومية العربية" استُبدلت بالدعوة إلى "الجامعة الإسلامية" لدى الأفغاني بعد الخلاف الذي دبَّ بين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨). في حين كان الأفغاني قبل خلافه مع السلطان الأحمر الطاغية عبد الحميد الثاني كان يعتبر هذا السلطان خليفة المسلمين، وأن الدولة العثمانية هي الإطار المناسب لقيام الوحدة الإسلامية و"الرابطة الإسلامية". ولم يأت قط على ذكر دعوة "القومية العربية" أو "الرابطَة العربية". وبذا لم تكن دعوة الأفغاني إلى "الرابطة القومية العربية" ناتجة عن إيمان من الأفغاني بحتمية وضرورة ومبررات الوحدة القومية العربية بقدر ما كانت ناتجة عن كيد سياسي وثأر من العثمانيين ومن السلطان عبد الحميد الثاني على وجه الخصوص. كما لم تكن ناتجة عن "نضج قومي" مفاجئ توصَّل إليه الأفغاني في هذه المرحلة كما قال بذلك محمد عمارة، سادن الفكر الأفغاني المعاصر.

عداء الأفغاني للقومية العربية

ومن المفارقات الملفتة للنظر والداعية إلى التأمل أن الأفغاني أثناء دعوته للجامعة الإسلامية كان يحمل حملة شعواء على القومية العربية ودعاتها.

وكان يؤكد "أن النظريات الحديثة من قومية إلى وطنية هي من صنع القوى الأجنبية الاستعمارية وحلفائها في المنطقة المؤتمرين بأوامرها من أجل نهب ثروات البلاد الاقتصادية والسيطرة السياسية. وأن الرابطة الإسلامية هي التي تجمع شمل الجميع وتصون الحرية والكرامة"، كما يقول منذر معاليقي (القومية العربية والطوائف الدينية في عصر النهضة، ص٢٦٧).

ويقول محمد عابد الجابري أن الأفغاني كان أثناء دعوته للجامعة الإسلامية يعادي العَلمانية ويرفض فصل الدين عن السياسة "مؤمناً بأن أقرب طريق للتعبئة السياسية للأمة الإسلامية هو توظيف الدين" (الشروع النهضوي العربي، ص٧٦).

كما كان الأفغاني يرفض الوطنية والفكرة القومية "مقرراً أن جنسية المسلمين في دينهم وأن جامعة الدين فيهم أقوى وأبلغ من أية رابطة أخرى".

مراحل ثلاث للفكر السياسي الأفغاني

وقد لاحظ فيلسوف القومية العربية اليمني/العراقي ساطع الحصري، أن فكر الأفغاني السياسي الخاص بالرابطة الإسلامية والرابطة القومية قد مرَّ بمراحل ثلاث:

١. الدعوة المتشددة للرابطة الدينية الإسلامية ومحاربة الدعوة إلى الرابطة القومية.

٢. إدراك أهمية وهيمنة الروابط القومية على الكيانات السياسية.

٣. إدراك أهمية وهيمنة الروابط القومية على المجتمعات الحضارية القائمة على روابط اللغة.

إلا أن الأفغاني تناسى هذا كله، وغضَّ الطرف عنه، بل هو أنكره أشد الإنكار عندما لم يجد صدىً لدعوة "الجامعة الإسلامية" عند سلاطين بني عثمان فقَلَبَ لهم ظهر المجن، وراح يدعو للقومية العربية والعروبة، وأصبح واحداً من روادها في القرن التاسع عشر. ولكن كتاباته السياسية ظلت – كما لاحظ الحصري – غير عقلانية أو منطقية، ومليئة بالأخطاء، ، والتي توضح مدى تخبطه الفكري وفشله في الفهم. وأنه كان مُهيِّجاً سياسياً أكثر منه مفكراً سياسياً.

القومية والعلمانية

وبعيداً عن دعوة الأفغاني القومية العاطفية المشوبة بالحسِّ الديني اتخذت جوانب من هذه الدعوة القومية من قبل ناشطين قوميين وسياسيين في هذه الفترة صفة العَلْمانية – في رأي بعض المثقفين العرب المعاصرين – التي تختلف عن العَلْمانية الأوروبية التي نشأت مخالفة للكنيسة. فكانت العَلْمانية الأوروبية أكثر من مجرد فصل الدين عن الدولة، بينما كانت العَلْمانية العربية في هذه الفترة مخالفة للدولة القومية (الطورانية/العثمانية) المتسترة بالإسلام. وكانت العَلْمانية العربية في القرن التاسع عشر تعني فصلاً واضحاً وكلياً للدين عن الدولة أياً كانت هذه الدولة، عثمانية أو غيرها.

شجاعة السلف من المفكرين

والحقيقة أن المفكرين العَلْمانيين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلى رأسهم شبلي شميّل وفرح أنطون كانوا أكثر شجاعة من المفكرين العَلْمانيين في النصف الثاني من القرن العشرين المهددين بسكاكين الجماعات الإسلامية المختلفة ومعتقلات الأنظمة العربية. فشبلي شميّل (١٨٥٠-١٩١٧) وفرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) قطعا قطعاً واضحاً وفصلا فصلاً تاماً بين الدين والدولة وكانت عَلْمانيتهم أكثر وضوحاً وشجاعة من عَلْمانية المفكرين العرب الغامضة الخجولة والمترددة في النصف الثاني من هذا القرن. (راجع ما قاله شبلي شميّل في "كتابات سياسية واصلاحية"، وما قاله فرح أنطون في كتابه "فلسفة ابن رشد").

الواقعية السياسية

سلمان النقاش

انتهى عصر السلالات في العالم الثالث اذا صحت التسمية الان ولقد جاءت الضربة القاصمة لحكم هذه السلالات من حركات التحرر الوطنية التي نشطت اثناء وبعد الحرب العالمية الثانية عندما تكونت الانتلجنسيا المحلية وطبقاتها الوسطى بتأثير عوامل التغيير التي خلخلت العالم القديم ومراكز قواه وتقسيماتها وبروز قوى عالمية جديدة رسمت خرائط نفوذها حتى انقسم العالم بين معسكرين .

ومع المواجهة الباردة بين هذين المعسكرين اصبحت الايديولوجية والرومانسية الثورية سلاح المعسكر الاول وتراجع او كف الدين عن قيادة المجتمعات الداخلة في فلك هذا المعسكر واصبح التقدم العلمي والتكنلوجي سلاح المعسكر الثاني واخذت القوانين تستمد شرعيتها من العلم وايضا تراجع او كف الدين عن القيادة برغم ان المعسكر الاول كان يحاكي حسب ما تقتضيه عقيدته الجانب العلمي والتكنلوجي فحين يتقدم الغرب بجهاز علمي جديد يبرز ما ينافسه في المعسكر المقابل وانسحبت هذه على نوع ونمط العلاقات الاجتماعية ودرجة تحضر المجتمع في كلا المعسكرين حتى غدا التنافس يشمل الحقوق المدنية الانسانية كحق التعليم والرعاية والطفولة وقضايا المرأة بحيث اصبحت هذه الامور مطالب حتمية تقتضيها عجلة التقدم الانساني وشرعت بشكل دولي كثير من القوانين وبيانات الحقوق .

اما اليوم وبعد ان وصلت الحرب الباردة الى نهاياتها وانفرد المعسكر الغربي كقطب واحد لقيادة النشاط الانساني برمته من الناحية الاقتصادية والعلمية والتقنية وما حققه فعلا بعد حقبة الثمانينيات من انجازات في السوق العالمية وما رافقه من تطور مجتمعاتها الأم من استقرار وتحضر وضمانات اجتماعية عالية صحية تعليمية حقوق انسان الخ ... اتسعت هوة التخلف في المجتمعات التي نجح المعسكر الاشتراكي من اسنادها وتكوين نمط من السلطة تحول دراميتيكيا الى دكتاتورية ترفع على الدوام شعار الوطنية والمستبد العادل كما حدث في مصر وسورية والعراق واليمن وليبيا .. بالاضافة الى استمرار من تبقى ضمن الفلك الغربي من حكم السلالات كما في السعودية وامارات الخليج والاردن وتمسكهم باستمالة جماهيرهم متعكزين على ادعاء قيادة المجتمع دينيا واكرر دينيا ... كلا الطرفين الاخيرين شكلا خطرا على التقدم المذهل للرأسمالية العالمية وادارتها السياسية الجديدة .. الطرف الاول اتجه نحو القمع الوحشي للشعب وتطوير نظام عسكري بدأ يقترب من اسلحة الدمار الشامل والاخر يريد التمسك بسلطته بواسطة الباس الشعب لباس الدين ودعم الحركات الدينية وبدعم من الغرب الداخل في المعركة الاخيرة لسقوط الاتحاد السوفيتي واعتقد انه نجح الى حد ما .. هذا ادى الى تصريف النقمة الشعبية في المجتمعات ذات السلطة الدكتاتورية نحو التحول للمشروع الديني مع الاحتفاظ بثقافة مواجهة الامبريالية العالمية التي ارست ثقافتها حركات التحرر الاولى هنا نستطيع ان نقول ان ما سيق من اراء حول الطائفية رغم واقعية نتائجها على ارض الواقع لكن الحقيقة تقول ان الطائفية والدين بشكل عام ما هو الا اداة تحركها مراكز قوى واعية لما تفعله بدليل ما حدث اخيرا في ايران حيث لم تستطع ثلاثون عاما من حكم العمامة التي وصلت الى ارض ايران بواسطة طائرة فرنسية(غربية) خاصة ان توقف حركة تطور مجتمع كانت اسس مسيرته معتمدة على حراك اجتماعي تقدمي بدليل ان ضغط سلطة الدين على هذا المجتمع احدث تسربات لازمت طبيعة حكم النظام تورما في جسد هذا المجتمع سال قيحه وبدأ مطالبا بالعلاج المطروح عالميا الا وهو الديمقراطية الممكنة التحقق في بلد مثل ايران .

لم يعد الدين السياسي قادراً على الاستمرار رغم اشتداد قبضته على ادوات السلطة في السعودية وايران واسرائيل وما مني به من خسارات نتيجة تراجع الدعم لمشاريعه التي باتت غير ذي فائدة لمشروع العولمة الجديدة .. لا بل ان نظرية صدام الحضارات لصاموئيل هنتغتون افرغت تماما من محتوياتها بعد الازمة المالية العالمية وتأثيراتها على مجمل السوق العالمية حيث اكدت ان المشروع الاقتصادي هو المحرك الاساس لطبيعة تقدم هذا المجتمع او ذاك ..

التجربة العراقية كانت كشفا ميدانيا لقدرة وامكانية الدين السياسي على مجابهة المشروع الغربي رغم حصول بعض الحركات الدينية على جرعات منشطة من المشروع ذاته .. غير ان الشارع هنا وجد ان الديمقراطية تتعثر حينما يكون لاعبوها من مريدي الدين السياسي ، ويبدو ان لافكاك الا بتحويل المجتمع ديمقراطيا بالمفهوم المدني المعتمد اساسا على اصول التشريع الديمقراطي الممتد عمقه ليصل الى ديمقراطية اثينا .

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com